الإيمان بعد رؤية الآيات

الخوري
نعمة الله الخوري
دكتور في لاهوت
الكتاب المقدّس

مقدّمة

تدعونا الكنيسة خلال هذه السنة إلى التأمّل في موضوع «الإيمان»، لذلك سنعالج مسألة ارتباط الإيمان بالآيات، والسؤال المطروح هو التالي: هل أراد الربّ يسوع إقناع مُعاصريه بالإيمان بشخصه وبرسالته بعد رؤية الآيات، أم أنّه فضّل أن يترك للأجيال اللاحقة طُرُقًا أخرى تقودهم إلى الإيمان؟

تُطلق الأناجيل على الأعمال الخارقة التي قام بها يسوع تسميات مُختلفة؛ فهي أحيانًا مُعجزات (تِيرَسْ) أو قوّات (دينامِيس) أو آيات (سيميَا) أو أعمال (إرْغَا)؛ تُفضّل الأناجيل الإزائيّة المعجزات والقوّات، في حين أنّ إنجيل يوحنّا يختار بالأحرى آيات يسوع وأعماله؛ غير أنّنا نجد أحيانًا تسمية المعجزات في الإنجيل الرابع مثلما ترد من وقت إلى آخر الآيات في الأناجيل الإزائيّة. لن نتطرّق إلى الفرق بين هذه التسميات المُتعدّدة لأعمال يسوع الخارقة لأنّنا سنُركّز اهتمامنا على ردّة فعل المؤمنين على تلك الفِعلات التي قام بها يسوع فجذب نحوه أنظار مُحاوريه.

سنتطرّق، في مرحلة أولى، إلى بعض الآيات التي أوصلت محاوري يسوع إلى الإيمان، ثمّ نعرض، في مرحلة ثانية، كيفيّة انتشار البشارة المسيحيّة في القرون الأولى دون رؤية آيات يسوع القائم من الموت والممجّد عن يمين أبيه في السماء.

١ . الآيات برهان يقود معاصري يسوع إلى الإيمان

١ . أ . إيمان مُرتبط بالآيات

تُؤكّد الأناجيل تكرارًا أنّ عددًا من معاصري يسوع تبعوه لأنّهم رأوا الآيات التي كان يصنعها؛ بعد معجزة الخبز، قال الناس: «حقًّا هذا هو النبيّ الآتي إلى العالم»[١]؛ ولما سكّن العاصفة، «تعجّب الناس وقالوا: من هذا حتّى تُطيعه الرياح والبحر»[٢]؛ كذلك بعد شفاء مُقعد كفرناحوم، «استولى الدهش عليهم جميعًا، فمجّدوا الله، وقد غلب الخوف عليهم فقالوا: رأينا اليوم أمورًا عجيبة»[٣].

من ناحية أخرى، نلاحظ، من حين إلى آخر، أنّ محاوري يسوع كانوا يطلبون منه آيات ليؤمنوا به؛ فقد سألته الجموع أثناء الجدال مع اليهود بشأن خبز الحياة: «أيُّ آية تأتينا بها أنت فنراها ونؤمنَ بك؟»[٤]؛ وحين دخل إلى الهيكل وطرد باعة الغنم والصيارفة، سأله اليهود: «أيّة آية تُرينا فتفعل هكذا؟»[٥].

لن نستعرض هنا كُلّ المراجع الكتابيّة التي تتوافق على عرض معاصري يسوع ينضمّون إلى رُسله بعد انذهالهم من قدرته التي تفوق الطبيعة البشريّة، ولكنّنا نكتفي بالإشارة إلى أنّ الربّ كان يتذمّر من هذا الواقع لذلك نراه يقول للموظّف الملَكيّ: «إذا لم تروا الآيات والأعاجيب لا تؤمنون»[٦].

أثناء حياته العلنيّة، حاول الربّ يسوع أن ينقل محاوريه من إيمان سطحيّ يرتكز على رؤية الآيات والخوارق إلى إيمان يتعمّق في شخصه؛ بعد شفاء النازفة، يُؤكّد الربّ يسوع، في إنجيل متّى، أنّ المرأة نالت الشفاء بسبب إيمانها العميق: «ثقي يا ابنتي، إيمانك أبرأك»[٧]؛ لكنّ لوقا، في النصّ الموازي، يُشدّد بالأحرى على الخلاص الذي نالته النازفة:

---

١ يو٦: ١٤.
٢ مت٨: ٢٧.
٣ لو٥: ٢٦.
٤ يو٦: ٣٠.
٥ يو٢: ١٨.
٦ يو٤: ٤٨.
٧ مت٩: ٢٢.

«يا ابنتي، إيمانك خلّصك، إذهبي بسلام»[٨]؛ لم نعد أمام شفاء من مرض مُزمن بل نحن أمام خلاص نالته النازفة.

بعد شفاء أعمى أريحا يقول مرقس إنّ ذاك المريض تبعه في الطريق[٩]؛ في هذا الموضع من الإنجيل كان يسوع ذاهبًا إلى أورشليم وهو يعلم المصير المأساويّ الذي ينتظره، وهذا يتّضح من الإنباءات الثلاثة بالآلام؛ إستعاد الأعمى البصر وتبع يسوع في الطريق، وهذه إشارة واضحة إلى أنّ المريض لم يرجع إلى بيت ذويه ليُكمل حياته بشكل طبيعيّ بعد أن نال نعمة البصر، بل أضحى تلميذًا ليسوع وسار وراءه على طريق الآلام.

١ . ب . إن لم ألمس الجراح لا أؤمن

حين شاء توما التأكّد، بواسطة اللمس، من حقيقة جسد القائم من الموت، وضع شرطًا غير مألوف يصعب الحصول عليه[١٠]؛ هناك فرق كبير بين توما، التلميذ غير المؤمن، وبين التلميذ الحبيب الذي آمن حين رأى القبر الفارغ والمناديل المتروكة هناك[١١] دون أن تكون حاجة لِطَلَب براهين أخرى صادرة عن يسوع نفسه.

قبل ثمانية أيّام فرح التلاميذ لدى رؤيتهم القائم من الموت وحاولوا إقناع توما بحقيقة القيامة لكن بدون جدوى: يجب حضور يسوع شخصيًّا ليحلّ اليقين محلّ الشكّ عند ذاك التلميذ؛ لم يقبل توما شهادة رفاقه وشاء أن يتحقّق بشكل حسّيّ وملموس من حقيقة جسد يسوع القائم من الموت، لذلك أعطاه يسوع إمكانيّة التصرّف كما يشاء، وسمح له بالتأكّد من الجراح في اليدين والجنب، ولكنّه دعاه ليتصرّف بعد الآن وكأنّه مؤمن حقيقيّ: «كن مؤمنًا لا غير مؤمن»[١٢].

٨ لو ٨: ٤٨.

٩ مر ١٠: ٥٢.

١٠ يو ٢٠: ٢٥.

١١ يو ٢٠: ٨.

١٢ يو ٢٠: ٢٧.

٢ . يسوع يرفض الإيمان الناتج عن رؤية الآيات

عرف يسوع تمامًا أنّ آياته ومعجزاته لن تكون كافية لتحقيق الهدف المرجوّ منها لأنّ تصلّب الفرّيسيّين الخصوم هو حاجز يحول دون ارتدادهم وقبولهم للبشارة، لذلك امتنع عن صنع الآيات التي تبهر العقول.

٢ . أ . نريد أن نرى آية

يعرض الإزائيّون الثلاثة طلب الفرّيسيّين رؤية آية من يسوع[١٣]، وهذا الطلَب يتضمّن رغبة صادقة في رؤية برهان يقودهم إلى الإيمان[١٤]؛ يقول مرقس في هذا الصدد: «فأقبل الفرّيسيّون وأخذوا يُجادلونه فطلبوا آية من السماء ليُحرجوه، فتنهّد من أعماق نفسه وقال: ما بال هذا الجيل يطلب آية؟ الحقّ أقول لكم: لن يُعطى هذا الجيل آية»[١٥].

غير أنّ النصّ الموازي في إنجيل متّى يعرض المسألة بطريقة مُختلفة؛ فالرّبّ يسوع لبّى رغبة محاوريه وأعطاهم آية يونان النبيّ[١٦]، وهكذا امتنع الربّ يسوع عن صنع آية، واكتفى بالتذكير برسالة يونان بين الأمم الوثنيّة. إنّ طلب الآية هو أمر معقول تاريخيًّا[١٧] غير أنّ جواب يسوع هو سلبيّ للغاية؛ فلقد امتنع من أن يُعطي آية لمحاوريه لأنّه يُريد التخلّي عن البراهين العجائبيّة من أجل أن يُركّز انتباههم على شخصه ورسالته.

حُرم اليهود من الآيات التي طلبوها، فلن يتوبوا، لذلك ستنقلب المواقف، وسيحلّ الوثنيّون محلّهم في ملكوت الله، ويُضحي الأوّلون آخِرين والآخِرون أوّلين[١٨]؛ يُشير يسوع إلى هذا التغيّر في المعادلات من خلال الإشارة إلى أهل نينوى الوثنيّين الذين سيحكمون على اليهود يوم الدينونة لأنّهم تابوا بإنذار يونان، في حين أنّ يسوع هو أعظم منه على

١٣ مت ١٢: ٣٨-٤٢؛ ١٦: ١-٤؛ مر ٨: ١١-١٢؛ لو ١١: ٢٩-٣٢.

١٤ إستعان موسى وهارون بالآيات ليُقنعوا الشعب ويقودوه الى الإيمان (خر ٤: ٣٠-٣١).

١٥ مر ٨: ١١-١٢.

١٦ مت ١٢: ٣٨-٤٢.

١٧ رج: تث ١٣: ١-٥؛ لو ٢: ٨؛ يو ٢: ١٨.

١٨ مت ٢٠: ١٦.

مستوى النبوءة.

من ناحيتها، شاءت ملكة الجنوب أن تمتحن سليمان بأسئلتها، وهكذا فعل الفريّسيّون حين جرّبوا يسوع[١٩] وطلبوا منه آية؛ تأكّدت ملكة سبأ من الأخبار المتداولة حول حكمة سليمان، فجاءت لتسمع حكمته[٢٠]، لذلك ستدين هذه الملكة الوثنيّة الجيل اليهوديّ الذي لم يصل إلى التوبة بعد أن سمع بشارة يسوع، عِلْمًا أنّ الربّ أعظم من سليمان على مستوى الحكمة.

٢ . ب . الأمر بالصمت وعدم إفشاء أخبار المعجزات

عرضنا أعلاه أنّ الفرّيسيّين طلبوا من يسوع آية ليؤمنوا به، وكأنّ الإيمان ينجم عن رؤية الآيات؛ ولكنّنا نستغرب، حين نقرأ إنجيل مرقس، أنّ يسوع يفرض الصمت على معجزاته ولا يُريد إعلانها أمام الجموع؛ نجد هذا «السرّ المسيحانيّ» في مواقع مُتعدّدة من الإنجيل الثاني:

بعد شفاء الأبرص، منعه يسوع من أن يقول لأحد عن أمر شفائه[٢١]، وطلب الربّ من الحاضرين، بعد أن أقام ابنة يائيروس، أن لا يعلم أحد بشيء[٢٢]؛ إثر شفاء الأصم منعقد اللسان، أوصاهم ألاّ يُخبروا أحداً بشأن المعجزة[٢٣]؛ كذلك بعد اعتراف بطرس في قيصرية أنّ يسوع هو المسيح، نهاهم عن كشف الأمر[٢٤]؛ وبعد نزول يسوع والتلاميذ الثلاثة من جبل التجلّي[٢٥] منعهم من كشف اختبارهم على الجبل.

هنا نتساءل: كيف يصنع يسوع المعجزات المدهشة وفي الوقت عينه يأمر بالصمت

١٩ مر ٨: ١١.

٢٠ ١ مل ١٠: ١-١٠.

٢١ مر١: ٤٤.

٢٢ مر ٥: ٤٣.

٢٣ مر٧: ٣٦.

٢٤ مر٨: ٣٠.

٢٥ مر ٩: ٩.

وعدم إفشاء الخبر؟ بعد رؤية الآيات المذهلة، خاف يسوع من تحرّك الجموع وراء ملِك سيرفع عنهم نير التسلّط الرومانيّ، وهذه الانتفاضات تُزعج السلطات الرومانيّة التي تقمع هذه الحالات بالقوّة. رفض يسوع هذه النتائج السلبيّة المحتملة وفرض الصمت على معجزاته؛ يجب أن ينتظر التلاميذ أحداث القيامة ليفهموا معنى رسالة المسيح وملكوته الذي ينتمي إلى عالم الله، وفي ذلك الوقت سيتلاشى السرّ المسيحانيّ وسيستطيع الرُسل أن يُعلنوا بوضوح وبدون خوف أو تردّد أنّ يسوع هو المسيح المنتظر.

هذا يعني أنّ يسوع كان مُقتنعًا أنّ آياته ومُعجزاته لن تقود كُلّ معاصريه إلى الإيمان؛ فالبعض من محاوريه الفرّيسيّين كانوا يفهمون آياته بطريقة تختلف تمامًا عن موقف التلاميذ منها. بعد أحداث الصلب، ستقود معجزات يسوع إلى الإيمان بشخصه، ولكنّ المعجزات، أثناء حياته العلنيّة، لن تُعطي نتيجة إيجابيّة.

٢ . ج . الصليب آية وحيدة تقود إلى الإيمان

عرضنا أعلاه رفْض يسوع صنْع الآيات واكتفاءه بالإشارة إلى آية يونان؛ يُقابل متّى بين محنة يونان التي دامت ثلاثة أيّام وثلاث ليال مع الزمن الذي فيه بقي يسوع في القبر قبل أحداث القيامة. إنّ آية يونان هي إشارة خفيّة إلى موت يسوع؛ فالقيامة التي تلي أحداث الصلب هي الآية العظمى التي ستُظهر مجد يسوع؛ يقول يوحنّا في هذا الخصوص: «وأنا إذا رُفعت عن الأرض جذبت إليّ كُلّ إنسان»[٢٦].

وبناء عليه، إذا كان الفرّيسيّون يطلبون آية تقودهم إلى الإيمان فما عليهم إلاّ التمثّل بنيقوديموس الذي وقف قُرب الصليب[٢٧] يتذكّر قول يسوع: «كما رفع موسى الحيّة في البرّيّة، كذلك يجب أن يُرفع ابن الإنسان»[٢٨]؛ المسيح المرفوع على الصليب سيُعطي الخلاص للمؤمنين الناظرين إليه.

نجد هنا تقاربًا واضحًا بين الأخبار الإنجيليّة وتعليم بولس الذي يقول في رسالته الأولى

٢٦ يو١٢: ٣٢.

٢٧ يو١٩: ٣٩.

٢٨ يو٣: ١٤.

إلى أهل كورنتوس: «إنّ كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أمّا عندنا نحن المخلّصين فهي قوّة الله؛ فاليهود يطلبون الآيات، واليونانيّون يطلبون الحكمة، أمّا نحن فنبشّركم بالمسيح مصلوبًا»[٢٩].

يطلب اليهود الآيات ليتأكّدوا من قدرة الله: «أيّ آية تُرينا حتّى تعمل هذه الأعمال؟»؛ فيُجيب يسوع: أنقضوا هذا الهيكل وأنا أقيمه في ثلاثة أيّام»[٣٠]. تبدو خبرة الصليب علامة ضعف؛ فالمسيح المصلوب لم يستطع أن يُنقذ نفسه من الموت.

كان اليهود ينتظرون المسيح الذي يحظى بالنِعَم الإلهيّة[٣١]، ولكنّ الجُند علّقوا يسوع الناصريّ على خشبة، وهذا دليل على أنّ الله تخلّى عنه: «ملعون كُلُّ من عُلِّق على خشبة»[٣٢]. في الإطار نفسه يهتمّ اليونانيّون بالحكمة التي تُقدّم للناس شرحًا منطقيًّا للمسائل الماورائيّة، ولكنّ قدرة الصليب على منح الخلاص تتناقض بشكل قاطع مع الحكمة البشريّة.

٢ . د . بولس المؤمن دون رؤية الآيات

عرضنا أعلاه توما الرسول الذي يُمثِّل المؤمنين الذين يحتاجون إلى الأعمال الخارقة ليؤمنوا ببشارة يسوع؛ ولكنّ بولس الرسول هو مثال للمؤمنين الذين ينضمّون إلى البشارة المسيحيّة بعد الإصغاء إلى نداء الله الذي يدعوهم إلى الإيمان بيسوع.

لم يعرف بولس يسوع التاريخيّ؛ فالمعطيات التاريخيّة تؤكّد أن رسول الأمم نشأ في طرسوس (من أعمال تركيا) وجاء إلى أورشليم وهو فتى، ويظهر لأوّل مرّة في كتاب الأعمال حيث وضع راجمو إسطفانوس ثيابه عند قدمَي الفتى شاول[٣٣]. يبدو أنّ بولس لم يعرف المسيح التاريخيّ، كما أنّ ٢ كو ٥ : ١٦ تحتوي على إشارة غير أكيدة عن معرفة

٢٩ ١كور ١: ١٨.

٣٠ يو ٢: ١٨-١٩.

٣١ اش ١١: ٢.

٣٢ تث ٢١: ٢٣؛ غل ٣: ١٣.

٣٣ أع ٧: ٥٨.

شخصيّة للمسيح، لأنّه لو كان بولس قد رأى المسيح في الجسد لكان صرّح عن ذلك علانية أمام الذين أنكروا رسالته. تعرّف بولس على المسيح حين كان ذاهبًا على طريق دمشق ليضطهد المسيحيّين (أع ٩: ١-١٩)، فأرسله ليقوم بمهمّة تبشير الأمم.

٢ . هـ . الإيمان بعد سماع البشارة

في رسالته إلى أهل روما، يقول بولس: « كلّ من يدعو باسم الربّ يخلص. ولكن كيف يدعونه وما آمنوا به؟ وكيف يؤمنون وما سمعوا به؟ بل كيف يسمعون به وما بشّرهم أحد؟ وكيف يُبشّرون إن لم يُرسَلوا؟ فالإيمان إذًا من السماع والسماع هو من التبشير بالمسيح[٣٤].

ما هي الوسيلة للوصول إلى الإيمان؟ ضروريٌّ وجودُ مُرسَلين مُكَلَّفين بمُهمّة إعلان شهادة الله: لا نستطيع أن نُؤمن إذا لم نسمعْ الموضوع الذي يجب أن نُؤمن به. نجد أمورًا مُشابهة في الرسالة إلى أهل غلاطية حيث يُوجّه الرسول اللوم إلى أهل تلك المناطق ويُذكّرُهم أنّ العمل بأحكام الشريعة لم يجعلْهم أهلاً لقبول الروح بل لأنّهم سمعوا بشارة الإيمان[٣٥].

إنّ الدعوة باسم الربّ هي نتيجة الإيمان، ولكنّ الإيمان هو نتيجة السماع، والسماع من التبشير، والتبشير من الإرسال. من يُعلن البشارة؟ يجب أن يكون الرسول مُكلَّفًا بهذه المهمّة؛ بعبارة أخرى، يجب أن يكون المبشِّر مُنتَدبًا من الرسول نفسه. نلاحظ أنّ الرسل بشّروا المؤمنين المقيمين في أنحاء الإمبراطوريّة الرومانيّة وعمّدوهم بعد أن آمنوا ببشارة المسيح وأرسلوهم ليكونوا هم بدورهم شهودًا للمسيح.

يعتبر رسول الأمم أنّ الشرط الوحيد للخلاص هو الإيمان بالقلب أنّ الله أقام الربّ يسوع من بين الأموات؛ هكذا لا يأتي التبرير عن طريق التقيّد بأحكام الشريعة اليهوديّة بل يكون التبرير بالإيمان. هذا المفهوم الجديد للإيمان الذي نجده في الرسائل البولسيّة يجهل تمامًا مبدأ وجود الآيات التي تُبهر العقول لتقود الناس إلى الإيمان: غاب دور الآيات ليحلّ محلّه دور التبشير بالإنجيل.

---

٣٤ رو ١٠: ١٤-١٧.

٣٥ غل ٣: ٢-٥.

٢ . و . طوبى للذين لم يروني وآمنوا (يو ٢٠: ٢٩)

يُفضّل يسوع المؤمنين الذين يعترفون به استنادًا إلى شهادة الرسل الواردة في الأناجيل؛ في هذا الإطار، يريد الإنجيليّ الرابع التأكيد أنّ شهادة الرسل هي كافية لتستطيع الأجيال اللاحقة أن تعترف بقيامة يسوع، لكنّ مؤمنين عدّة كانوا يريدون التحقّق شخصيًّا من أحداث القيامة؛ ويُمثّل توما هذه المجموعة التي ترفض شهادة الرسل. نجد أمورًا مُشابهة في خطبة الوداع حيث يمدح يسوع الرسل الذين ستكون شهادتهم كافية لدعوة الناس إلى الإيمان: «لا أدعو لهم وحدهم فقط بل أدعو أيضًا للّذين يؤمنون بي عن كلامهم»[٣٦].

خاتمة

تحتلّ الآيات دورًا مركزيًّا في رسالة يسوع التبشيريّة، غير أنّها فقدت تدريجيًّا أهمّيّتها لتُفسح المجال أمام إعلان الإنجيل على يد الرسل الذي سيحلّ محلّ تلك الآيات. ولكنّ المؤمنين سيعانون دائمًا من الشكّ الذي وقع فيه توما ليصلوا إلى الإيمان الكامل بيسوع، وسيكونون بحاجة دائمة إلى براهين حسّيّة تُساعدهم في طريقهم الطويل نحو يسوع. في هذا الإطار، يتعلّق الكثيرون ببعض العلامات الخارقة التي تظهر هنا وهناك ومن حين إلى آخر، وتكون تلك الإشارات تافهة للغاية. هل يُمكن أن يؤمن الإنسان بعد رؤية قليل من الزيت أو البخور في أحد دور العبادة؟ لماذا يتهافت المؤمنون بشكل غير اعتياديّ إلى الأماكن التي تظهر فيها علامات خارقة؟

هناك طريقتان للوصول إلى الإيمان: طريقة توما وطريقة بولس؛ لم يكن إيمان توما كافيًا، وقد وجّه اليه يسوع اللوم لأنّه طلب رؤية الجراح كشرط لإيمانه؛ سيظلّ اختبار بولس مثالاً يقتدي به المؤمنون الذين تنقصهم شهادة الرسل للوصول إلى الإيمان الفصحيّ.

٣٦ يو١٧: ٢٠.